

سيكولوجية (الحصة التمويينية) لدى فقراء العراق

التخلي عن مبدأ الشراكة الاجتماعية في ملكية الدولة انتهك كرامة المجتمعات التي أجبرت على تبني هذا الخيار

إلى لجنة صياغة الدستور

وزارة البيئة..

مع التمية

أ.د. قاسم حسين صالح

قد يرى بعضكم فيما سنطرحه نوعاً من (البطر) عندما يوازن بين طلبنا وحال وطن ينطبق عليه قول الشاعر: ((تمزقت حتى لم أجد فيك مرقعاً)). فتجد يجد في دعوتنا إلى بيئة صحية وجميلة إنها مطلب ثانوي إزاء قائمة من الأولويات تتزامح على موقع الصدارة. وقد يجد في طلبنا تضمنين الدستور مادة تنص على احترام البيئة وعدم إهانتها، نوعاً من السفاهة، وقد يعلق على ذلك ساخراً: (عرب وين يظن بورة وين!) والحق أقول، إننا جميعاً لا نملك وعياً ثقافياً بخصوص مدى حجم تأثير البيئة في صحتنا الجسمية والنفسية، وما يصيبنا من اضطرابات بل حتى في سلوكنا ومزاجنا انفعالية. وقد لا يعلم بعضكم أنه من ربع قرن ظهر علم جديد اسمه (علم النفس البيئي) بعد ثبوت تأثير البيئة وتزايد مخاطرها. وتشكلت، فضلاً عن أنصار البيئة، فرق علمية في العالم المتقدم بميزانيات ضخمة لدراسة العلاقة المتبادلة بين البيئة وسلوك الإنسان والتفاعلات بين الأفراد ونوع البيئة التي يعيشون فيها، وخرجوا بدراسات تفيد أن البيئة السئية والمزجة تكون محملة بأربعة أنواع من المثرات:

الأول: الضغوط المستديمة مثل الحرارة والمناخ والاكنتاظ والأصوات المزجة، وهذه موجودة بعدها الأقصى في البيئة العراقية، من زحام المرور إلى حر تموز.. (إلى هورنات التاتا) وعلى ذكرها، نظرت محاكم بريطانية في شكاوى أشخاص تتعلق بالتوتر النفسي الناتج عن الإقامة في مناطق سكنية تتعرض للضجيج، وأصدرت عقوبات بالفرامة والحجز، فهل يأتي يوم لأصحاب التاتا والجار المزج؟

الثاني: الضغوط الفجائية، مثل الحروب والكوارث وما تسببه من تلوث. وهذه تكون شديدة التأثير وتصيب المجتمع بأكمله ولها آثار مزمنة. وتشكل البيئة العراقية (نموذجاً) بين بيئات العالم في تجسيدها هذا النوع من الضغوط.

الثالث: الضغوط الحياتية وفي مقدمتها: البطالة والبطالة وموت الأعراف. ولا توجد بيئة في العالم توازي البيئة العراقية في هذا الشأن لا سيما بعد الاحتلال وتحول البيئة العراقية إلى ساحة للإرهاب تجر بالاروود.

والرابع: الضغوط التراكمية وتحصل من تراكم الضغوطات الصغيرة التي تؤدي إلى التوتر. ولا حاجة للإشارة إلى حوصلة العراقي الملوء إلى اقصاصها بالمنغصات من ربع قرن.

وقد لا ينتبه بعضكم إلى أن جيلاً كاملاً من الشباب (ونسبتهم في مجتمعنا أكثر من ٥٠%) ولد في ضجيج ونشأ في ضجيج ولا يزال يعيش في الضجيج والصخب والشغب ويعتاد على الضجيج والصخب –وهذه حقيقة سيكولوجية– يصاحب بجدة المزاج والقلق والميل إلى العدوان. فضلاً عن أن هذا الجيل لا يمتلك ثقافة بيئية متحضرة. فلقد شاهدت طلبة جامعات يرمون نفاياتهم على الأرض بالرغم من أن الكلية وضعت سلالاً وحوايات كتب عليها(حافظ على نظافة كليتك) وعلقت على الجدران (النظافة من الإيمان)!

والطارقة، إن وزارة البيئة أنفقت الملايين لعمل لوحات أنيقة تدعو إلى المحافظة على البيئة فيما لم تفعل شيئاً بخصوص مصفى بجي مثلاً الذي يسرب مخلفاته الصناعية في نهر دجلة، أو معمل الطاقة الحرارية في صلاح الدين الذي يلقي هو الآخر في نهر دجلة مياهه الصناعية التي تحتوي على قواعد وحوامض ومياه صرف صحي، أو معمل الأسمدة الكيماوية الذي يصرف مياهه الصناعية المحملة باليوربا في دجلة أيضاً! وحالات أخرى لو اطلعتم عليها لوليتم منها فراراً!

ما نأمل من لجنة صياغة الدستور تضمنين حقوق البيئة العراقية في الدستور ضمانته لحقوق الإنسان. وما نتمناه على وزارة البيئة أن تضع برنامجاً علمياً يبدأ بإشاعة (ثقافة البيئة) أولاً، وأن لا تكون قد جمعت موظفيها على وفق المعايير السابقة، التي يأتي في ذيلها الخبرة بعلم البيئة!

ولأن مصطلح (الفقر) يعني أن معدل الدخل اليومي للفرد لا يزيد على دولارين (أو دولار واحد تبعاً لبعض المعايير)، فإن (الحصة التمويينية) التي ابتكرها النظام السابق ثم شرعتها قرارات مجلس الأمن، أصبحت طوال اثني عشر عاماً بمثابة كلمة السر لبقاء هذه الجموع الضامرة والمتهكة على القيد البيولوجي للحياة، من دون أن ننسى بأن هذه الفئات التمويينية لم تكن إلا وسيلة سلطوية لابتزاز شعب، اشترك الجميع في ثرواته وتمزيق هويته وتقويض فرص ازدهاره على مرأى منه. ومع ذلك، صرنا نشهد اليوم مسؤولين رسميين في السلطة الجديدة، يطالعوننا عبر شاشة التلفاز من حين إلى آخر، وقد كسا اللحم المتورد رقابهم المصقولة بنسائم أجهزة التبريد على مدار الساعة، بتصريحات عن احتمال إلغاء الحصة التمويينية أو استبدالها بمبالغ نقدية تدفع للمواطنين شهرياً. إن العقلية (البراغماتية) التي تحرك هذه التصريحات، أصبحت سمة جوهرياً في شخصية السياسي المعاصر الباحث عن السلطة ولو لبضعة أسابيع أو أشهر. وهي (أي هذه العقلية)، وبالأستناد إلى الأدبيات الأكاديمية في الاقتصاد الحر، ونزولاً عند شروط مؤسسات العولمة الاقتصادية الاحتكارية الساعية لامركة التاريخ، لقادرة دوماً على تقديم قوائم طولاً بالفوائد (الجمة) الناجمة عن خصخصة الاقتصاد ورفع الدعم عن السلع الأساسية، كالحصة التمويينية مثلاً.

ونورد بعضاً من هذه الفوائد (المفترضة) التي يقدمها هؤلاء المسؤولون، على سبيل المثال لا الحصر:

- ✦ مكافحة بيروقراطية الدولة وفسادها الإداري.
- ✦ استثمار أموال الدعم هذه في مشاريع إنتاجية أكثر جدوى.
- ✦ فك الارتباط بين أيديولوجية الدولة ولقمة عيش الفرد.
- ✦ الحد من اتكال الفرد على الدولة وتشجيعه على المبادرة الفردية.
- ✦ ديمقراطية الاقتصاد والتأي به عن المركزية والقطاع العام بوصفهما رديين للاستيداد السياسي.
- ✦ ومهما انفضنا أو اختلفنا مع هذه الرؤية الاقتصادية التي يجري تشكيل اقتصاد (العراق الجديد) على أسسها، فمن المؤكد أنها (أثرت) على النطاق العالی خلال العتدين الماضين (وحسب تقارير صادرة عن هيئات دولية ومنظمات تابعة للأمم المتحدة) جملة من الوقائع، من بينها أن (٣٥٨) شخصاً من كبار أثرياء العالم أصبح حجم مصادر ثروتهم التقديمية

عند الإسلام صحة الإنسان ركناً أساسياً لا تقل أهميته عن العقيدة، فالإنسان لكي يكون مسؤولاً ومكلفاً من قبل الله، يجب عليه أن يتمتع بصحة بدنية ونفسية، تمكنه من أداء مهماته التعبدية وواجباته تجاه نفسه وأهله ومجتمعه. والطبابة واحدة من وسائل الحفاظ على الصحة البدنية والنفسية على حد سواء.

ومع اتساع رقعة الحضارة العربية الإسلامية، كان لا بد من أن يظهر في كل مكان من بقاعها مستشفى يعني بأهلها. وقد سمي المستشفى

بساوي حجم المصادر التي يعيش منها (٢٠٣) مليار إنسان من فقراء العالم، وأن (٢٠%) من دول العالم صار سكانها يمتلكون أكثر من (٨٥%) من مجموع مدخرات الكرة الأرضية، فيما بنام مليار إنسان كل يوم وهم جياع، ويعيش (١٠٥) مليار إنسان من دون رعاية صحية. وبالقابل، فإن التقويم الاجتماعي والنفسي لعواقب الخصخصة والشاملة والتسرع للاقتصاد والتخلي عن مبدأ الشراكة الاجتماعية في ملكية الدولة، يقدم بدوره قوائم تفصيلية بالانتهاكات الفظة التي لحقت بكرامة المجتمعات التي أجبرت على تبني هذه الخيارات، ابتداء من ظاهرتي

(بیمارستان)، وهي مقردة أعجمية، إذ إن(بیمار) تأتي بمعنى مريض أو مكلل أو مصاب، و(ستان) بمعنى دار أو عيال (دار المرضى). وعرفت الحضارة العربية الإسلامية في مشرقها ومغربها الكثير من المستشفيات، التي اهتمت بالصحة النفسية للناس في مختلف أحوالهم المرضية. وهناك إشارات دالة وواضحة على مدى تطور الرعاية النفسية والعقلية بالمصايين، وكيف يتم علاجهم ورعايتهم ومعاملتهم معاملة إنسانية رفيعة.

معمارية المستشفيات

تشير المراجع التاريخية إلى خصائص معمارية وهندسية وخدمية وصحية أتبعها المختصون في بناء المستشفيات لتكون ملائمة للمرضى الراقدین بها، مضافاً إليها عامل مهم هو البعد السيكولوجي الذي نحن بصدد. فكان الموقع الجغرافي يتم اختياره بعناية فائقة من المختصين في بناء المستشفيات وتشييدها، لذلك نرى اغلب تلك المستشفيات شيدت في أماكن جميلة ذات مناخ ملائم، أما من ناحية البناء، فانها بنيت على طراز فاخر وعمارة ممتازة، إذ يتألف المستشفى

من جناحين أحدهما للرجال والآخر للنساء، وكل جناح ينقسم إلى قاعات حسب نوع المرض والمرضى. وهناك غرفة خاصة لكل مريض، يقدم له فيها الدواء والمعالجة على نحو علمي. وتكون أجنحة المستشفيات معزولة عزلاً كاملاً لدرجة إنها تبدد كل صوت أو ضجيج يمكن أن يقلق راحة السكان المجاورين. كما اهتم القائمون على أمر المستشفى بجدائقه، فكان يزرع فيه موسميًا مختلف أنواع الزهور والحمضيات وأنواع الأشجار الجميلة. وقد حوى بعض المستشفيات التواوير في حدائقها أو أروقتها، فضلاً عن البسرك والحمامات، والاهتمام بحسن المنظر العام للمباني، ومساحتها، ومراعاة الهواء المكاني الكامل للمريض. وقد ذكر(الطبّاخ) في كتابه(اعلام النبلاء): ((وقد بلغنا انه كان في أطراف الصحن الخارجي، وعلى أطراف الحوض الذي في وسطه، أنواع الرياحين ينظرها المجاذين، وكانوا يأتون بألات الطرب والغنّين فيداوون المجاذين بها)).

النظرة الإنسانية للمرضى

على عكس ما كان يحدث في الحضارة الأوربية، اهتم المجتمع العربي الإسلامي بالمرضى العقلين (الذهانيين) والمرضى العصائيين على حد سواء. ويقول (رونه ساند) في كتابه (الطب الاجتماعي): (ويحرص المسلمون المصابين بعقولهم، ويوصون بمعالجتهم بالليل، ويفرزون لهم المشاي وقاعات لمعالجتهم). وكذلك ينقل (علي يزغور) عن الفيلسوف الفرنسي المعاصر (ميشال فوكو) في كتابه (تاريخ الجنون في القرن التاسع

الملايسات السياسية والاقتصادية التي أدت إلى إقرارها في حياة المجتمع العراقي منذ عقد ونصف

القرن الماضي، مروراً بظاهرة استيلاء المافيا على الدولة) في روسيا بعد تفكك الاتحاد السوفيتي في أواخر العام ١٩٩١ وارتفعت معدلات الفقر في دول الكتلة الاشتراكية السابقة من (٢%) إلى (٢١%) بسبب تحولها إلى اقتصاد السوق (باعتراف البنك الدولي نفسه)، وانتهاء بقيام بعض حكومات البلدان الآسيوية التي فقراء العراق حالياً، بالرغم من شحنتها ومحدودية سعرها الحرارية، ويصرف النظر عن

(عشر) أن وضع المجنون في الحضارة العربية الإسلامية كان أرفع شأناً من حاله في أوربا. ومن الملاحظ أن الحضارة العربية الإسلامية تعد أولى الحضارات التي بنت مستشفى خاصاً لتدوي الحاجات الخاصة (العوقين عقليا) والمرضى النفسيين وغيرهم. وهي بذلك تختلف عن نظرة الغرب آنذاك للمرض النفسي بوصفه مساً من الشيطان أو لعنة من السماء أو عقاباً للشخص على خطيئة ارتكبها، فحلقت عليه أنواع العقوبات. فأصبح علاج الغرب يتم بواسطة طرد الشياطين من أجسام المرضى، بأن يوضعوا في سجون مظلمة وقد قيدت أيديهم وأرجلهم، أو أن يعزلوا عن العالم وعن أهلهم في المستفى أو السجن، أو يوكل أمرهم إلى رجال قساة لا يعرفون الرحمة أبداً. فيما نجد في المقابل، مفهومًا مختلفاً للمرض النفسي لدى العرب المسلمين، فهو حالة موضوعية لها أسبابها وعلتها، وإن المريض لديهم هو إنسان بحاجة إلى مساعدة ورعاية إنسانية. فلم يكن المستشفى مكاناً لإيواء المرضى والعلاج النفسي فحسب، إنما كان أيضاً مكاناً للتأهيل في جميع جوانبه، فلا يخرج المريض إلا بعد التأكد من سلامته في كل نواحي سلوكه.

مميزات العالميت في حقل رعاية المرضى

مع اتساع الحضارة العربية الإسلامية اتسعت القواعد الأخلاقية لمهنة الطب، وسلوك الطبيب تجاه المرضى، وكذلك العاملين في هذه المهنة. وظهر في التراث الكثير من الكتب التي تتحدث عن مهنة الطبيب وواجباته مثل كتاب(آداب الطبيب) لإسحاق

فارس كمال نظمي

بدولته. فكان لسان عقله الباطن يقول: ((نعم، الدولة ليست خائنة كليا تجاه حقوق، فهي لا تزال ملتزمة في الأقل بتوفير جزء من لقمة عيشي!)).

✦ يعد مجرد التفكير باحتمال تسلم سلّة غذائية ولو محدودة جدار أول كل شهر، تخفيفاً لموسم الضغوط والتوترات النفسية المكثفة التي يتعرض لها رب الأسرة العراقية نتيجة البطالة وقلة الموارد واتعدام الضمانات الاجتماعية. ✦ إن لجوء الكثير من الأسر العراقية إلى بيع بعض مواد حصتها التمويينية لشراء سلع أخرى تقتدها، ريثما تتسلم مستحقاتها من اجور أو رواتب أو معونات في مناورة للتوفيق المؤقت بين احتياجاتها، إنما يحقق إرضاءً نفسياً محدوداً لها بأنها متحكمة نسبياً بمسيرها وقادرة على البقاء البيولوجي بالرغم من كل شيء.

وبنذلك يمكن القول إن الحصة التمويينية أصبحت جزءاً من مفهومي (الأمن الاجتماعي) و (الأمن النفسي) في العراق، إذ يحصل عليها كل عراقي بما فيهم الشيوخ والأطفال والعاجزون والعموقون والمتقاعدون وريث البيوت ونزلاء المستشفيات والسجون والعاطلون عن العمل. ولعلها بذلك تمثل المصدر الأخير للحد من تعاطف معدلات الفقر والجريمة وجنوح الأحداث والإدمان والتفكك الأسري والعنف الاجتماعي والاضطرابات النفسية. وإن إلغاءها في الوقت الحاضر أو استبدالها ببضعة دولارات تتبخر قيمتها فوراً في دوامة التضخم الاقتصادي، وقبل أن تنجح الدولة بتحريك عجلة الاقتصاد واحتواء البطالة وإرساء قواعد دستورية وإجرائية متينة للضمانات الغذائية والصحية والاجتماعية، سيؤدي منظور السيكولوجيا الجمعية لعراق، أن السلطة الجديدة قد أصابتها عدوى (السادية) و (الأتانية) من السلطة التي

سبقتها، وإنما قد اختارت حشرهم نهائياً في مزعة أمريكية عصرية للعبيد اسمها (البنك الدولي)، الذي تسلم (بول وولفويتز) رئاسته مؤخراً بعد أن أنهى مهمته (النظرة) في (البنكاون) بوصفه المنظر لعملية احتلال العراق ✦ الإحصائيات المتعلقة بنسب الفقر والبطالة في العراق اقتبست من تقرير صادر عن كل من برنامج الغذاء العالمي ومنظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة (الفاو) في ٢٠٠٣. وتعد هذه الأرقام أكثر تحفظاً من تقديرات أخرى للأمم المتحدة جاءت بعدها وحددت نسبة الفقر في العراق بين (٧٠/٨٥%)، ونسبة البطالة ب(٧٢%).

المستشفيات في الحضارة العربية الإسلامية و دورها في الرعاية النفسية

قيس ياسين

الرهابي وغيره، وظهرت مفردات من قبيل السلوك المهني والأداب الطبية. وكانت تتبع قوانين في توظيف العاملين والمعالجين في حقل الطب والطب النفسي، خصوصاً الجانب الأخلاقي، إذ يجب أن تتوفر في المتقدم الرحمة ويكون رؤوفاً بالمرضى عطفواً عليهم، ويملك روح المساعدة الاجتماعية، ويكون أميناً على أسرار المرضى الشخصية والطبية والسوكية. وكان المعالجون والمساعدون أو العاملون في المستشفى يقومون برعاية المرضى منذ دخوله المستشفى على وفق برامج معدة سلفاً: مثلاً يعطونه حماماً ويلبس ثياباً جديدة ونظيفة. أما ثيابه القديمة وأشيائه فترسل إلى المخزن، وتقدم له المعونات في كل أوجهها من قبل العاملين الذين دربو على ذلك، فهم يقدمون الطعام والمشورة والمساعدة في أية لحظة للمريض المحتاج إليها.

وينقل الدكتور (البيديري) أنه كان يخصص لكل مجنون أو مريض نفسي خادماً ينزعاه عنه ثيابه كل صباح ويحممته بالماء البارد، ثم يلبسه ثياباً نظيفة، ويحممته على أداء الصلاة، ويسمعه قراءة القرآن، يقرأه قارئ بصوت حسن، ثم يفسحانه في الهواء الطلق، ويسمح له بالاستماع إلى الموسيقى وغيرها من الأشياء التربوية. إن هذه الصورة الموجزة عن المستشفيات في الحضارة العربية الإسلامية ومدى اهتمامها بالمرضى النفسانيين والعقليين تعطينا مؤشراً مهماً عن مدى الرقي الذي وصلت إليه هذه الحضارة في الاهتمام بالإنسان بوصفه قيمة عليا، وسعيها لتوفير سبل الارتقاء به نفسياً وبدنياً.



*** أصبحت الحصة التمويينية جزءاً من مفهومي (الأمن الاجتماعي) و (الأمن النفسي) في العراق**

*** تمثل الحصة التمويينية آخر خيط فك يربط الفرد العراقي بدولته بعد أن اغتربا عن بعضهما حد الإنكار والمقت**

